



الدراسات الإسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الخامس / ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

الدلالات النفسية واللغوية لمفهومى الخوف والحزن فى القرآن الكريم

أ.د عبد الباقي دفع الله أحمد

أستاذ مشارك، قسم علم النفس، كلية الآداب، ج. الخرطوم.

د. عائدة عبد الرحمن الأنصاري

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم..

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٨٥-٣١٠)

تمهيد :

الاسلام دين الفطرة ، وهو يقرر أن الهدف من وجود الإنسان هو عبادة الله وخلافته في الأرض ، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بقوة المسلم وصحته الجسدية والنفسية والذهنية . وقد جاء بضوابط وقواعد تحمي هذه الصحة وتهذبها وصولاً لصالح المؤمن في دنياه وآخره . وقد أنزل الله القرآن هداية للناس وجعله كتاباً مصداقاً ومهيماً ، وعريباً مبيناً ، وبرغم وضوحه وجلائه فيه من المعاني والدلالات ما لا ينقضي ولا ينفد ، فهو بحق كما وصف لا تنقضي عجائبه ، ولا يلى على كثرة الرد ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يحيط به زمان أو مكان ، وهذه السمات تجعل المسؤولية تجاهه أكبر وأعمق من أن تحتزل العلاقة معه على أنه كتاب تعبد فقط ، وما فيه من نظم وأحكام لم يكتشف منها إلا القليل وسيظل القرآن بكرا يحوي ما يستجد من علوم ومعارف ، وقد أدرك السابقون ما للعلوم على اختلافها من أثر في فهم القرآن سواء أكان ذلك بالفهم المباشر كعلوم القرآن أو غير المباشر مما ينمي ثقافة المفسر التي تؤثر بدورها في فهمه وتفسيره ، ومن أهم هذه العلوم علوم اللغة التي شهدت تطوراً كبيراً في شتى ضروبها وكان القصد من ذلك هو خدمة الكتاب العزيز ، كما أن علم النفس من العلوم التي يمكن أن تسهم بصورة واضحة في إيضاح بعض المعاني والدلالات للمفاهيم المرتبطة بالجانب المعنوي من حياة الإنسان .

شاع في الخطاب القرآني كثير من المعاني النفسية التي تبدو واضحة من السياق والقرائن والألفاظ ، إذ للنفس دور كبير في الإيمان بالله تعالى ، فالعقل وحده ليس حاكماً في هذا وإنما لا بد من تضافرها معاً ، وقد حظيت هذا الأمور بقدر وافر من الدراسات بغية جلائها وما يكتنفها من معان . وفيما يتعلق بالدراسات اللغوية فهي أكثر من أن يحيط بها العد ، فكما قد ذكر فإن الدراسات في فروع اللغة المختلفة منذ القدم كان المقصد منها بيان معاني القرآن وأحكامه ، أما اجتماع علم اللغة وعلم النفس في دراسة واحدة تتناول مفهومي الخوف والحزن فيعتبر من الدراسات النادرة التي نرجو أن تكون لبنة في هذا المجال يبنى عليها الكثير .

يتعرض الجانب العاطفي والعقلي للإنسان لكثير من العوامل التي يكون لها أثرها الواضح عليه ، ومن ثم لم يترك الإنسان هملاً ونهباً لهذه العوامل ، فحث الإسلام المسلم على

أن يعيش في حدود يومه بحيث لا تشئت حياته بين آلام الماضي وأحزانه ، وبين توقع المستقبل والخوف مما هو آت ، وهذا لا يعني تجاهل الإعداد للمستقبل والعمل على التخطيط له ، وإنما يعني عدم الاستغراق فيه بحيث يحسب الإنسان كل صيحة عليه ، الأمر الذي زاد من حالات التوتر والقلق التي يعيشها كثير من الناس ، وصدق النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام إذ يقول : ” من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها “^(١).

حث القرآن في كثير من آياته على التفكير والتدبر والتأمل في آيات الله تعالى ، مما يزيد الإنسان يقيناً ومعرفة وانصرافاً عن التفكير فيما لا يجدي وما لا يجد له دفعا ، ومن الآيات الدالة على ذلك ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ السَّحَابَ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] . فالتفكير يساعد على الخشوع والاستسلام والتجرد والانصراف عن شواغل الدنيا مما يساعد على الاسترخاء والتخلص من المشاعر السلبية في أمور ليست ذات أهمية كالغضب ، والكراهية ، والخوف ، والشفقة على النفس ، والريبة والشك ، ولوم النفس والندم ، والغيرة من الآخرين ، وعدم الثقة بالنفس .

يرتكز قوام حياة البشر على الأمن والرزق ، ويشكل انعدامهما مصدر تعاسة الإنسان وقلقه ، لذا كرست الآيات القرآنية هذه المعاني في القلوب تكريسا ، وغرسها غرسا ، ودلت على السبيل التي يتوصل بها إلى الأمن الذي لا خوف بعده ، والرزق الذي لا نفاد له ، وذلك بسلوك سبيل الله تعالى التي بينها الرسل وابتلي لأجلها المكلفون ، لأن هؤلاء تتوفاهم الملائكة طيبين ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] . وهم الذين ﴿ لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] . ولكن الهم والغم والضيق والقلق والخوف والحزن والملل والوحدة وفقد الأمان والشعور بالاكتمال كلها أمراض ومشاكل تفقد الناس الشعور بالسعادة في هذه الحياة .. لأنها تؤدي للاحباط واليأس المانع من النجاح في الحياة .

^(١) حسن بمجموع الأنصاري وابن عمر .

مشكلة الدراسة :

ارتبط الأمن من الخوف بالأمن من الحزن في كثير من الآيات القرآنية ، ولما كان القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو بالمكان الأعلى من البيان والبلاغة ، كان لا بد أن يكون لهذا الارتباط سبب قوي ، وعلة متينة تحتاج إلى إعمال الفكر وتقليب النظر في الجانبين اللغوي والنفسي لبيان العلاقة بين المشاعر والانفعالات وارتباط بعضها ببعض ، وتحديد الخوافز المرتبطة بإزالة هذه المشاعر السالبة كتحفيز من رب العزة لعباده المكرمين.

أهمية الدراسة وأهدافها :

- تتمثل أهمية هذه الدراسة في أمور تجمل فيما يلي :
- (١) تحاول هذه الدراسة أن تكون خطوة في طريق تأصيل العلوم السلوكية ، إذ أن علم دراسة السلوك من العلوم التي تجمع الكثير من الاختلافات الثقافية والاجتماعية الناشئة بسبب التنوع بين البشر في هذين الجانبين ، وترى الدراسة أنه ينبغي جعل القرآن الكريم حاكما على الأمور السلوكية ومعيارا لها.
 - (٢) تعرف المشاعر الإنسانية بصورة عامة بوصفها عنصرا مهما من عناصر تكوين الشخصية وكيفية تفاعل هذه العناصر مع بعضها ، لتنتج أنماطا متباينة من حالات الإنسان المزاجية ، وبذلك تعمل على تحقيق مبدأ تعبدي مهم يتعلق بالنظر في النفس لزيادة التفكير والتدبر ومن ثم زيادة الإيمان.
 - (٣) تحديد المضامين الإيجابية والسلبية لمفهومى الخوف والحزن كما وردت في السياق القرآني ، وتوضيح أهمية العوامل التي تجعل من مجرد الوعد بعدم الخوف والحزن من البشريات العظيمة التي وعد الله بها عباده المتقين.
 - (٤) البحث في رؤية القرآن الدلالية لمفهومى الخوف والحزن ، وكيف يربط بينهما ، ولماذا جمع بينهما وكررها في كثير من الآيات ، والمناسبات المختلفة التي وردا فيها معا مما يعمل على بيان الصور الجمالية البلاغية لهذه المفاهيم النفسية.

مصطلحات الدراسة :

تشتمل هذه الدراسة بهذا الوصف على عدد من المصطلحات نعرض لها أولاً لجلاء ما يمكن أن يعرض للقاريء من غموض ولبس ، من ذلك مصطلحات : علم الدلالة ، والخوف ، والحزن ، ويتم عرض كل منها بشيء من البسط ، مع مزج الجانبين اللغوي والنفسي .

علم الدلالة :

هو فرع من علم اللغة يعنى بالتطور التاريخي لما يطرأ على معاني الألفاظ ، والواضح من تاريخ هذا العلم إنه تطور ليتمدد مجاله إلى علوم أخرى ، كعلم النفس والفلسفة والمنطق والبلاغة وعلم الاجتماع ، والتاريخ وغيرها ، إذ أصبحت الدلالة توظف لدراسة العلاقات بين الدوال والأشياء التي تدل عليها. ومن ناحية أخرى فإن علم الدلالة اتجه إلى العوامل الخارجية ذات الأثر في الألفاظ من إنسانية واجتماعية ، بل امتد للجوانب النفسية والعاطفية ، وما لهذه العوامل من أثر في انكماش دلالة بعض الألفاظ ، وبالتالي فهو علم يشكل إضافة مهمة في دراسة المعنى.^(١)

الخوف :

يعرف الخوف في اللغة : بالفزع ، خافه يخافه خوفاً وخيفة ومخافة ، قال الليث : خاف يخاف خوفاً ، وإنما صارت الواو ألفا في يخاف لأنه على بناء عمل يعمل ، فاستثقلوا الواو فألقوها ، ومنه التخويف والإخافة والتخوف ، والنعت خائف وهو الفزع. ويقال قوم خوف على الأصل وخيف على اللفظ. وتخوفت عليه الشيء أي خفته ، وتخوفه كخافه. وأخافه إياه إخافة وإخافا ، وخوف الرجل إذا جعل فيه الخوف ، وخوفته إذا جعلته بحالة يخافه الناس ، وفي التنزيل العزيز ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥]. أي : يجعلكم تخافون أوليائه. والخيفة الخوف ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ، ورجل خاف : خائف. قال سيبويه : سألت الخليل

(١) انظر عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب ص ١٢ .

عن خافٍ فقال يصلح أن يكون فاعلاً ذهب عينه ، ورجل خاف أي شديد الخوف جاءوا به على فَعِلَ مثل فَرِقَ وفَزَعَ كما قالوا صاتٌ أي شديد الصوت.

هنالك نوعان من الخوف : خوف طبيعي كالخوف من الحيوانات المفترسة والزواحف القاتلة ، والخوف من العدو ، والخوف من الظلام ، فمثل هذا الخوف شعور طبيعي لدى الناس ، بل لدى جميع الكائنات الحية ، وكل إنسان يستجيب لهذا الشعور بطريقة مختلفة ، إذن هذه تعتبر مخاوف طبيعية حين يعبر عنها بصورة واقعية. أما الخوف المرضي ، وهو خوف لا يتناسب مع المثير ، كالخوف من الأماكن المرتفعة أو ركوب الطائرة أو المصاعد والسلام الكهربائية ، والخوف من المواقف الاجتماعية المختلفة مثل الاجتماعات والاحتفالات والأفراح وفي المدرسة والعمل والأسواق ، أو الخوف من مقابلة أفراد مهمين ، أو الخوف من التحدث أمام الحشود ، أو إمامة الناس في الصلاة ونحو ذلك ، فهذه وما شابهها عبارة عن خوف غير طبيعي ” مرضي “ دائم وملازم للمرء من شيء غير مخيف في أصله ، وهذا الخوف لا يستند إلى أي أساس واقعي.

وبغض النظر عن نوع الخوف ، فهناك بعض المظاهر العضوية التي تسانده مثل : شعور مفاجيء بالهلع والرعب مصحوب بزيادة سرعة ضربات القلب ، وألم في الصدر ، وشعور عام بعدم الاستقرار ، أو شعور بالدوار ، وصعوبة في التنفس ، وشعور عام بالتنميل ، وزيادة العرق ، وألم بالمعدة وغثيان ، وخوف من عدم القدرة على السيطرة على الموقف ، وخوف شديد من الموت.

وتبنى هذه الدراسة تعريف آرون بيك [Beck] للخوف [٢٠٠٠] الذي يصفه بأنه كل ما يفكر فيه الفرد من عواقب وجوده في الموقف المعين ، أو اتصاله بذلك الشيء ، مما يعمل على شل قدرته على التفكير المنطقي والموضوعي وبالتالي قدرته على التعامل بإيجابية مع المحيط الذي يعيش فيه.

الحزن :

في اللغة الحُزْنُ والحَزَنُ : لغتان كالرُّشد والرَّشد ، نقيض الفرح ، وهو خلاف السرور ، والجمع أحزان ، وقد حزن حزناً وتحزن وتحازن ، ورجل حزنان وحزان : شديد الحزن ، وحزنه الأمر يحزنه حزناً ، وأحزنه فهو محزون ومحزن وحزين وحزن. قال الجوهري : حزنه

لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قريء بهما. وفي الحديث : أنه كان إذا حزنه أمر صلى أي أوقعه في الحزن ، ويروى بالباء.^(٣)

وفلان يقرأ بالتحزين إذا أرق صوته. وعام الحزن : العام الذي ماتت فيه خديجة رضي الله عنها وأبو طالب. قال أبو عمرو : إذا جاء الحزن منصوباً فتحوه ، وإذا جاء مرفوعاً أو مكسوراً ضموا الحاء كقول الله عز وجل ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَاسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤]. أي أنه في موضع خفض ، وقال عز وجل في موضع آخر ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩٢] أي أنه في موضع نصب. وفي استعمال الفعل منه لغتان : تقول حزني يحزني حزنا فأنا محزون ، ويقولون أحزني فأنا محزن وهو محزن. ويقولون صوت محزن وأمر محزن ولا يقولون صوت حازن. قال أبو زيد : لا يقولون قد حزنه الأمر ، ويقولون يحزُّنه فإذا قالوا أفعله الله فهو بالألف.^(٤)

قال صاحب تاج العروس : ” وفرق قوم بين الهم والحزن ، وقال المناوي : الحزن الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي ويضاده الفرح. وقال الراغب : الحزن خشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم “. ^(٥) وفي النهاية : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤] قالوا فيه : ” الحزن هم الغداء والعشاء ، وقيل هو كل ما يحزن من هم معاش أو حزن عذاب أو حزن موت “. ^(٦)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحزن يأتي كصورة منطقية للاكتئاب الذي عرفه ارون بيك [Beck] بأنه : ” عبارة عن استجابة لا تكيفية مبالغ فيها ، وتتم بوصفها نتيجة منطقية لمجموع التصورات أو الإدراكات السلبية للذات ، أو للموقف الخارجي ، أو للمستقبل ، أو للعناصر الثلاثة مجتمعة “. ويعرف ريتشارد سوين [١٩٨٨] الاكتئاب ” بأنه حالة من القنوط واليأس وانقطاع الأمل والخوف تصاحبها اتجاهات سلبية ، وتغيرات في محيط الدافعية أو في القوى الدافعة المحركة للإنسان وفي الانطباعات المعرفية وبشكل عام في السلوك السلبي ،

(٣) لسان العرب مادة حزن.

(٤) لسان العرب مادة حزن.

(٥) تاج العروس ، مادة حزن.

(٦) تاج العروس ، مادة حزن.

ويعتري الفرد في حالة الاكتئاب بعض الانفعالات ، منها الحزن أو الميلانخوليا والقلق أو الحصر والبأس “. ويصف عبدالستار ابراهيم [١٩٩٤] الاكتئاب بأنه ” حالة من الألم النفسي يصل في الميلانخوليا إلى ضرب من جحيم من العذاب مصحوبا بالإحساس بالذنب شعورياً ، وانخفاض ملحوظ في تقدير النفس لذاتها ، ونقصان في النشاط العقلي والحركي والحشوي “. ويستدل من هذه التعريفات على أن الحزن يتصف بمجموعة من الأعراض المرضية التي يمكن تعرفها من خلال اشتراكها في المزاج السيئ ، والضعف الحركي والنفسي والمعرفي ، هذا إضافة لرغبة متكررة وملحة للتخلص من النفس بالانتحار.

يتضح من تعريفات الخوف والحزن أنها يعملان على تجميد الانسان وشده انفعاليا بين زمنين يمثلان في الماضي حزنا وفي المستقبل خوفاً ، وعليه تقل فاعلية الفرد الانتاجية وقدرته على الاستمتاع بمباهج الحياة.

الخوف والحزن في القرآن الكريم :

تكرر الكلام عن الخوف والحزن كثيرا في القرآن الكريم ، وقد ارتبط الأمن من الخوف بالأمن من الحزن في كثير من الآيات ، ولا بد أن وراء هذا الربط والتكرار أسبابا ومسوغات تحتاج إلى إعمال الفكر والتبصر في الجانبين اللغوي والفكري لايضاح هذا الأمر. وربما يعزى هذا - والله أعلم - إلى أنها أقوى الانفعالات تأثيرا على حياة الإنسان وعليها مدار أمره ، لأنها يمثلان قطبي الزمن الذي يعيشه لارتباطهما بالماضي ” الحزن “ والمستقبل ” الخوف “. والخوف والحزن إذا اجتمعا في قلب إنسان فإنه لا ينتفع بحياته ولا يستمتع بها ، وهما من أقوى أسباب الأمراض النفسية ، وهما أس كل هم وكرب ، وحولهما دارت كثير من الدراسات في مجال علم النفس لما كانت غاية خلق الانسان هي عبادة الله وعمارة الأرض الأمر الذي لن يتحقق على الوجه الأتم إلا إذا كان الإنسان متمتعا بصحة نفسية وذهنية مستقرة الأمر الذي أولاه الاسلام. عناية فائقة واهتماما كبيرا.

لماذا تحدث الله عن الخوف بصيغة الاسم ” لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ “ ، بينما تحدث عن الحزن بصيغة الفعل ” وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ “ ؟ لتأمل هذه الأشياء : اتفق علماء النفس أن الخوف هو ردة فعل لا شعوري ، وبالتالي ليس في تحكم الإنسان ، فجميع الكائنات الحية تخاف فذلك جاء بصيغة المصدر ” خوف “ ، بينما الحزن هو تصرف شعوري وإرادي ، ويمكن لإنسان أن يحزن وآخر ألا يحزن عند نفس الظروف ، ولذلك جاء بصيغة الفعل ” يحزنون “. كما إن

الآثار والنتائج التي يسببها الخوف أكبر من تلك التي يسببها الحزن ، ولذلك قدّم الله ذكر الخوف على ذكر الحزن. كما إن الخوف يأتي من مصدر خارجي ، لذلك جاءت كلمة "عليهم" لتعبر عن المحيط الخارجي الذي يحيط بالإنسان ، بينما الحزن يأتي من مصدر داخل الإنسان ولذلك سبق هذا الفعل بكلمة "هم" لا خوف عليهم : الخوف أولاً ثم "عليهم" للدلالة على سرعة الشعور بالخوف ، وهو جزء من الثانية ، أي أن الخوف هو عمل فجائي مباغت ، ولا هم يحزنون : "هم" ثم الحزن. للدلالة على أن الإنسان هو الذي يقوم بالحزن ، وهذا يستغرق زمناً قد يمتد لساعات ، أي أن الحزن لا يكون فجائياً. هذا إضافة إلى أن الخوف يكون من المستقبل ، بينما يكون الحزن على شيء مضى أو يعيشه في نفس اللحظة ، والمستقبل مجهول بينما الماضي معلوم ، والإنسان يهتم بمعرفة المستقبل أكثر من الماضي ، لذلك جاء ذكر الخوف أولاً ليطمئن المؤمن على مستقبله ، ثم جاء ذكر الحزن ليطمئن المؤمن على ماضيه وحاضره ، وبالتالي شمل جميع الأزمنة! ولذلك أينما ذكر الخوف والحزن في القرآن نجد الخوف يتقدم على الحزن لهذه الأسباب. حتى إن "الخوف" في القرآن قد تكرر أكثر من "الحزن" ، فسبحان الذي أحصى كل شيء عدداً^(٧)

ورد لفظ "الخوف" ومشتقاته في أربع وعشرين ومائة آية من آيات القرآن الكريم [١٢٤ آية] ، بعضها وردت فيها كلمة الخوف بلفظها ، أو قد تتخذ صوراً مختلفة ودلالات متعددة بحسب السياق الذي ترد فيه ، من ذلك قوله سبحانه : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب : ١٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] . ومما جاءت فيه مشتقات الخوف قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] وقوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : ١٤] وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ١٨] .

^(٧) عبدالدائم الكحيل : روائع الاعجاز النفسي في القرآن الكريم والسنة (http://www.kaheel7.com)

وقد وصف القرآن الكريم حالة الخائفين وصفا رائعا وبين الأعراض التي تظهر على وجوههم وجلودهم ، يقول سبحانه ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٠] وقال : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] وقال : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب : ١٩].

وقد نبى القرآن عن الخوف من ما سوى الله عز وجل حيث قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] وبالمقابل فإن من يؤمن بالله تعالى لا يخاف كما ورد في قوله تعالى ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣] وقوله سبحانه ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] وهذا النوع من الخوف هو الذي ينبغي أن يتعزز لدى الإنسان لأنه مدعاة للشعور بالأمن والطمأنينة والسكينة وهو مفتاح باب سعادة الدارين .

والفعل " خاف " إما أن يتعدى بنفسه ، وهو الأكثر ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود : ١٠٣] وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وإما أن يعدى بمن أو بعلی بحسب السياق الذي يرد فيه ، فمن الأول : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] وقوله : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٨٢] وهذا قرين ما لم يعد بحرف في المعنى ، ومن الثاني قوله سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] و ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] وقوله ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] والآخر بمعنى من أجل ، فالإنسان قد يشعر

بالخوف من شيء يثير في نفسه الخوف ، وقد يخاف ليس من الشيء ولكن من أجله ، فهو قد يخاف من الموت والمرض ، ولكنه يخاف على ماله وولده ، فكما قد رأيت فإن ما تعدى بنفسه أو عدي بمن كان المعنى فيه أنه هو مسبب الخوف ومثيره ، وما عدي بعلى كان الخوف من أجله. كذلك يعدى الفعل خاف بحرف الباء وهو في معنى يتخذه وسيلة للتخويف ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر : ٣٦] قال فيها القرطبي : ” وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان فقالوا : أنسب آلهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبك بسوء. وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكرها بالفأس ، فقال سادنها أحذر كها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ لأنه الذي وجه خالدًا “^(٨)، ومنه أيضا قوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ مَنْ قَوْفِهِمْ ظُلٌّ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ مَحْتِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر : ١٦].

وهنا أمر يحسن الإشارة إليه وهو أنه لم يرد تعدية الفعل خاف بمن إذا كان الخوف منه سبحانه وتعالى وإنما يعدى بنفسه ، يستوي في ذلك إن كان الخوف منه مباشرة مثل قوله تعالى : ﴿ لئن بسطت إلی يَدِكَ لَتَقَتِّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٤٨] وقوله ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦]. أو أن يكون الخوف من مضاف إليه جل شأنه وتقدس أسماؤه ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠] ومثله : ﴿ وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ ﴾ [إبراهيم : ١٤] وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧].

والخوف منه نوع إيجابي وهو الخوف من الله تعالى لأنه يؤدي إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه مما يقود إلى حسن العاقبة وجميل المنقلب ، ومن ذلك قوله سبحانه ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

(٨) تفسير القرطبي ٣٢٩/١.

يُوصَلْ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿ [الرعد : ٢١] . وقد مدح الله تعالى في آيات كثيرة الخوف والخائفين وذلك في المواطن التي يؤدي فيها الخوف إلى ما يؤمن الإنسان من الخوف الأكبر - خوف اليوم الآخر - من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور : ٣٧] ..

وكما قد مدح الخوف فقد ذم في مواطن أخرى ونهي عنه ، وذلك حينما لا يكون الخوف منه جل جلاله وكأن في ذلك تنبيهها إلى أن الخوف ينبغي أن يكون من الله تعالى وحده وكل خوف من سواه إنما هو مما لا طائل تحته فهو الذي يكدر صفو الحياة ويؤدي إلى اضطرابها ، مثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص : ٣١] وقوله : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] ، وقوله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [طه : ٢١] . ويلاحظ هنا أن الخطاب في هذه الآيات من الحق سبحانه وتعالى لبعض أنبيائه تطميناً لهم ونفياً للخوف عنهم إعانة لهم على النهوض بأعباء التبليغ والرسالة ، ومن ما سوى ذلك مما نهى فيه عن الخوف قوله سبحانه : ﴿ ... قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص : ٢٢] . وقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

والفعل حزن يعدي بنفسه وهذا هو الأكثر ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [آل عمران : ١٧٦] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يونس : ٦٥] وقوله ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] وقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] . كما قد يعدي بعلی ومعناه من أجل ، وهذا كثير منه قوله سبحانه : ﴿ فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَّكِنَ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] وقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وهي هنا بمعنى لا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ، قاله ابن كثير.^(٩)

(٩) تفسير ابن كثير ١/ ١٤٢ .

ورد النهي عن الحزن في آيات عديدة منها : ﴿ وَلَا تَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [آل عمران : ١٧٦] وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . وقوله سبحانه : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

وقد يجمع بين الخوف والحزن على سبيل النهي أيضا وذلك في مثل قوله سبحانه : ﴿ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ [العنكبوت : ٣٣] وقوله : ﴿ فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي النِّيمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص : ٧] .

والنهي هنا ليس مقصودا به النهي عن الخوف والحزن لأن ذلك ليس في وسع الإنسان ، وإنما أريد به النهي عن مقارنة ما يؤدي إليهما وعدم الركون إليهما إذا وقع الإنسان فريسة لهما مما يعطل حياته ويكدر صفوها ، وقد ورد في كثير من هذه الآيات الحل للمسألة التي ينجم عنها الخوف أو الحزن ، ومن ثم كان النهي عنهما لانتفاء أسبابهما بتدبير الحق سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [طه : ٢١] فالحق سبحانه وتعالى يقدم الحل للمشكلة التي وقع فيها سيدنا موسى عليه السلام مما كان سببا لخوفه ومن هنا ساء النهي عن الخوف والخشية ، فالوسيلة التي تؤدي إلى النجاة لا يقبلها العقل لأنها معجزة لكن لما اتبعت بالنهي عن الخوف صار قبولها أمرا يسيرا سهلا .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] فجعل معيته سبحانه سببا قويا لنفي الخوف لذلك ارتقى الأمر إلى النهي عنه لأن من يكون الله معه لا ينبغي أن يتطرق الخوف إليه من قريب أو بعيد . وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٣] فالوعد بالنجاة من الله تعالى كاف لنهي الإنسان عن الخوف والحزن ، وقد قدم النهي عنهما ثم اتبعه مباشرة بالبشارة بنجاته وأهله مما يسهل عليه الامتثال للأمر . وفي قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٣٥] والوجل الخوف ، وقد أمنوه من الخوف بأكثر شيء يجلب الأمن والسرور لنفسه وهو الذرية التي كان ينتظرها زمانا ، وينبغي أن يستجيب للنهي عن الوجل لأنهم ملائكة مرسلون من الله تعالى لتبليغ هذه الرسالة .

وقال تعالى مخاطبا أم موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] وقد جمع بين النهي عن الخوف والحزن ، ولما كان المخوف أمرا جللا وهو فقدان ابنها لا سيما انها أمرت بإلقائه في اليم والأمر في غاية الغرابة بالنسبة لأم موسى فكيف يقال لها إذا خفت عليه فالقيهِ في اليم وهل هناك ما يخاف عليه أكثر من اليم وهو وليد في مهده؟ لكن جاء تفسير ذلك في الآيات التالية بالبشارة لها برده وجعله من المرسلين فهذه بشرى عظيمة ما كان يمكن لأم موسى أن تطمئن بأقل منها لتقذف بابنتها في اليم فقد أصبحت واثقة بحسن العاقبة لما قد ألهما ألا تخاف ولا تحزن.

وفي خطاب النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار عند الهجرة قال ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] فلو لم يردف النهي عن الخوف بقوله إن الله معنا لما سكن روع أبي بكر وهدأ باله في مثل تلك الليلة العصيبة التي عانا فيها ما عانا من تعقب قريش لها حتى أنها كانا يسمعان وقع أقدامهم فوق رأسيهما ، ومما ملأ الغار من حيات اضطر معها الصديق رضي الله عنه إلى سد جحورها بجسده حتى لا تصل إلى الرسول ﷺ ، فأخذ الخوف من أبي بكر كل مأخذ وذهب به الحزن مذاهب شتى على ما خلفا وراءهما من الأهل والمال ولما هما فيه من عنت فكان المخلص من كل ذلك ” إن الله معنا “.

قال الراغب في قوله تعالى : ” وَلَا تَحْزَنُوا “ ، ” وَلَا تَحْزَنْ “ ليس بذلك نهى عن تحصيل الحزن ، فالحزن لا يحصل باختيار الإنسان ، ولكن النهي في الحقيقة إنما هو عن تعاطي ما يورث الحزن واكتسابه ، وإلى معنى ذلك أشار القائل :

ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وقد يأتي الحزن بمعنى الخوف لأن الخوف مجلبة للحزن ، قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] قيل في تفسيرها المراد بذلك الموت أو النفخة في الصور أو حين يؤمر بالعبد إلى النار ، أو حين تطبق النار على أهلها ، أو حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، ويعضد هذه الإشارة الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ” ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر

يوم القيامة ، رجل أم قوما وهم له راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم ليلة ، وعبد أدى حق الله وحق مواليه “ ففسر الحديث الآية بأن الحزن بمعنى الخوف. كما تفسرها الآية الأخرى ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧].

والذي يثير الانتباه حقا تكرر الآيات التي قرن فيها القرآن بين الخوف والحزن ، بل تنتهي معظم هذه الآيات بفاصلة واحدة هي ” لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ “ مسبوقة بصفات من هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وبهم استحقوا هذا التكريم العظيم وكيف آمنوا في يوم تزيغ فيه الأبصار وتبلغ فيه القلوب الحناجر.

بلغ عدد الآيات التي جمع فيها بين الخوف والحزن على هذا النحو اثنتي عشرة آية كان نصيب سورة البقرة منها ست آيات. وبما أن المفسرين فسروا الآية [٣٨] من سورة البقرة ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] واعتمدوا على ذلك في تفسير كل آية ختمت بقوله تعالى : ” فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ “ وبعض المفسرين لم يقف عندها كثيرا واقتصر كلامه على الآية بقوله : ” الحزن يكون على أمر ماض ، والخوف من أمر مستقبل “.

أقوال أهل التفسير في قوله تعالى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ :

قال الطبري : ” يقول لا خوف عليكم أمامكم ، وليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت فأمنهم منه وسلاهم عن الدنيا فقال “ ولا هم يحزنون “ وقال القرطبي : ” قال لا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وقيل ليس فيه دليل على نفي أهوال القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله ﷺ من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا “^(١٠) وقال النسفي : ” والحزن ضد السرور وهو مأخوذ من الحزن وهو ما غلظ من الأرض ، فكأنه ما غلظ من الهم ولا يكون إلا في الأمر الماضي على المشهور... وقيل إنه والخوف كلاهما في المستقبل لكن الخوف استشعارهم لفقد مطلوب ، والحزن استشعار غم

(١٠) تفسير الطبري ١/ ٢٤.

(١١) تفسير القرطبي ١/ ٣٢٩.

لفوت محبوب ، وجعل هنا نفي الخوف كناية عن نفي العقاب ، ونفي الحزن كناية عن الثواب ، وهي أبلغ من التصريح وأكد لأنها كدعوى الشيء بيينة ، والمعنى لا خوف عليهم فضلا عن أن يحل بهم مكروه ولا هم يفوت عنهم محبوب فيحزنوا عليه ، فالمنفي عن الأولياء خوف حلول المكروه والحزن في الآخرة وفيه إشارة إلى أنه يدخلهم الجنة التي هي دار السرور والأمن لا خوف فيها ولا حزن وحيث يظهر التقابل بين الصنفين ، وقال بعض الكبراء : خوف المكروه منفي عنهم مطلقا ، وأما خوف الجلال ففي غاية الكمال .“

وقدم انتفاء الخوف لأن انتفاء الخوف فيما هو آت أكثر من انتفاء الحزن على ما فات ولهذا صدر بالنكرة التي هي أدخل في النفي وقدم الضمير إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأن غيرهم يحزن ، والمراد ببيان دوام الانتفاء لا بيان انتفاء الدوام كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما تقرر في محله أن النفي وإن دخل نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام .

وذكر بعض الناس أن العدول عن لا خوف لهم أو عندهم إلى لا خوف عليهم للإشارة إلى أنهم قد بلغت حالهم إلى حيث لا ينبغي أن يخاف أحد عليهم.^(١١) وقال أبو حيان : تظافرت نصوص المفسرين والمعرين على أن من في قوله ”فَمَنْ تَبِعَ“ شرطية وأن جواب الشرط هو قوله ”فَلَا خَوْفٌ“ فتكون الآية فيها شرطان. وحكي عن الكسائي أن قوله ”فَلَا خَوْفٌ“ جواب الشرطين جميعا.

ولا يتعين أن تكون ”من“ شرطية بل يجوز أن تكون موصولة بل يرجح ذلك لقوله في قسمه ”وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا“ فأتى به موصولا ويكون قوله ”فَلَا خَوْفٌ“ جملة في موضع الخبر ، وأما دخول الفاء في الجملة الواقعة خبرا فإن الشروط المسوغة لذلك موجودة هنا. وفي قوله : ”فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ“ تنزيل الهدى منزلة الإمام المتبع المقتدى به فتكون حركات التابع وسكناته موافقة لمتبوعه وهو الهدى فحيث يذهب عنه الخوف الحزن. ”فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ“ قرأ الجمهور بالرفع والتنوين ، وقرأ الزهري وعيسى الثقفي ويعقوب بالفتح في جميع القرآن ، وقرأ ابن محيصن باختلاف عنه بالرفع من غير تنوين.

(١١) تفسير النسفي ١/ ٤٨ .

وجه قراءة الجمهور مراعاة الرفع في "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" فرفعوا للتعادل. قال ابن عطية : والرفع على إعمالها إعمال "ليس" ولا يتعين ما قاله بل الأولى أن يكون مرفوعا بالابتداء لوجهين : أحدهما : أن إعمال "لا" عمل ليس قليل جدا ويكون النزاع في اقتياسه ، والثاني : حصول التعادل بينهما إذ تكون "لا" دخلت في كلتا الجملتين على مبتدأ ولم تعمل فيهما. ووجه قراءة الزهري ومن وافقه أن ذلك نص في العموم فينفي كل فرد من مدلول الخوف ، وأما الرفع فيجوز وليس نصا فراعوا ما دل على العموم بالنص دون ما يدل عليه بالظاهر.

وأما قراءة ابن محيصن فخرجها ابن عطية على أنه من إعمال "لا" عمل "ليس" وأنه حذف التنوين تخفيفا لكثرة الاستعمال. ويجوز أن يكون عري من التنوين لأنه على نية الألف واللام فيكون التقدير "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" ، ويكون مثل ما حكى الأخفش عن العرب "سلام عليكم" بغير تنوين قالوا يريدون "السلام عليكم" ويكون هذا التخريج أولى إذ يحصل التعادل في كون "لا" دخلت على المعرفة في كلتا الجملتين وإذا دخلت على المعارف لم تجر مجرى ليس وقد سمع ذلك من بيت للناطقة الجعدي وتأوله النحاة وهو :

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متراخيا

وقد لحنوا أبا الطيب في قوله : "فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا".

وكنى بقوله "عليهم" عن الاستيلاء والإحاطة ، ونزل المعنى منزلة الجرم ونفى كونه معتليا مستوليا عليهم ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن الخوف لا ينتفي بالكلية ، ألا ترى إلى انصباب النفي على كينونة الخوف عليهم ولا يلزم من كينونة استعلاء الخوف انتفاء الخوف في كل حال ولذلك قال بعض المفسرين ليس في قوله "فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنها مخففة عن المطيعين فإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا. وقدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن انتفاء الخوف فيما هو آت أكد من انتفاء الحزن على ما فات ولذلك أبرزت جملته مصدرة بالنكرة التي هي أوغل في باب النفي وأبرزت الثانية مصدرة بالمعرفة في قوله : "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". وفي قوله "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأن غيرهم يحزن ولو لم يشر إلى هذا المعنى لكان "وَلَا يَحْزَنُونَ" كافيا ولذلك أورد نفي الحزن عنهم وإذهابه في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١) ... إلى قوله لَا

يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿[الأنبياء] ومعلوم أن هذين الخبرين وما قبلهما من الخبر مختص بالذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وفي قوله ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فدل هذا كله على أن غيرهم يحزنه الفرع الأكبر ولا يذهب عنهم الحزن. وقال بعضهم نفى الاستيلاء للتعريض بالكفار والإشارة إلى أن الحزن مستول عليهم.^(١٣)

قال أبو السعود : ” الخوف : الفرع في المستقبل ، والحزن ضد السرور مأخوذ من الحزن وهو ما غلظ من الأرض فكأنه ما غلظ من الهم ولا يكون إلا في الأمر الماضي على المشهور ويؤول حيثنذ نحو ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ بعلم ذلك الواقع ، وقيل إنه والخوف كلاهما في المستقبل لكن الخوف استشعار هم لفقد مطلوب ، والحزن استشعار غم لفوت محبوب ، وجعل هنا نفى الخوف كناية عن نفى العقاب ونفى الحزن كناية عن نفى الثواب ، وهي أبلغ من التصريح “.

وقيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأحقاف : ١٢-١٤] استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن لأنهم لما سمعوا البشرى تطلعوا إلى صفة البشرى وتعيين المحسنين ليضعوا أنفسهم في حق مواضعها فأجيبوا بأن البشرى هي نفى الخوف والحزن عنهم وأنهم أصحاب الجنة وأن المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أفعالهم. وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا فإن فيه مفهوم القصر من قوله : ” أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ “.

ودخول الفاء على خبر الموصول وهو ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ لمعاملة الموصول معاملة الشرط كأنه قيل : إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ومثله كثير في القرآن فأفاد تسبب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن. و” عليهم “ خبر عن خوف ، أي لا خوف يتمكن منهم ويصيبهم ويلحقهم ، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله ” وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ “ لتخصيص المسند إليه بالخبر نحو ما أنا قلت هذا ، أي أن الحزن متنف عنهم لا عن غيرهم والمراد بالغير من لم يتصف بالإيمان والاستقامة في مراتب الكفر والعصيان فجنس الخوف

^(١٣) تفسير أبي حيان البحر المحيط ١/١٦٩-١٧٠.

ثابت لمن عداهم على مراتب توقع العقاب حتى في حالة الوجل من عدم قبول الشفاعة فيهم ومن توقع حرمانهم من نفحات الله تعالى.^(١١)

والحق أن المعنى كله دائر حول هذا ، فلا خوف عليهم لأنهم قد أمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها للخفص الذي صاروا إليه والدعة والزلفة. فما قدموا عليه ينسيهم ما فارقوه مهما بلغت قيمته.

ومما يزيد من قيمة أمنهم من الخوف أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع ، فينادي مناد : يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، فيرجوها الناس كلهم لكن تأتي الآيات التي تليها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٩] فتخصص المؤمنين وتؤيس غيرهم من هذه الرحمة.

الجمع بين الخوف والحزن في آية واحدة :

لأن من شأن الانفعالات النفسية أن تكون متداخلة متلازمة ، فيصاحب الحزن الخوف ، ويشارك الحزن والغضب ، والفرح والتفاؤل ، والخوف والتشاؤم ، والخوف والحزن ، والقلق والخوف ، واليأس والحزن ، وقد ورد كل ذلك في القرآن الكريم وقد وردت هذه الانفعالات متصلة متشابكة لأنه من الصعب الفصل بينها.

وقد يبرز سؤال هنا : لماذا قدم الخوف على الحزن؟ لأن سبب ذلك هو أن ما يترتب على الخوف من آثار أقوى من تلك التي تترتب على الحزن ، وأن الخوف يمكن أن يقضي إلى الحزن لأن الخائف قد يملكه الحزن بسبب عدم تمكنه من العيش عيشة طبيعية ، والعكس ليس صحيحاً أي أن الحزين قد لا يملكه الخوف ، بل قد يؤدي الحزن بالإنسان إلى ارتكاب كثير من المخاطر " من ضمنها الانتحار " بسبب زهده في الحياة الناتج عن تشاؤمه واستهانته بحياته. وبما أن الحزن يكون على شيء مضى وبالتالي فهو شيء معلوم بالنسبة للإنسان فتطلع نفسه إليه وتشوقها أقل من تطلعها لما هو آت الأمر الذي يرتبط به الخوف ، فقدم الخوف لارتباطه بما هو آت فتطمئن النفس وتسكن عند ذلك ، ولأن المستقبل مجهول فإن الإنسان يتطلع لمعرفة وإذا اقترن ذلك باطمئنانه عليه كان ذلك أسكن للنفس وأدعى إلى اطمئنانه. ومن توابع الخوف حالة الحزن التي تؤدي إلى الإكتئاب والاحباط.

(١١) تفسير أبي السعود ١/ ١١٤.

وقد نهى القرآن الكريم عن الحزن مرارا إذ يقول ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران : ١٣٩] ويقول : ﴿وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ﴾ ويقول ﴿لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ويرى القرآن الكريم أن الحزن انفعال سالب يؤدي الاستسلام له إلى الركون وانكسار النفس وتقاعس الهممة وهو من عمل الشيطان كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة : ١٠]. وهو من أسوأ ما يخافه الإنسان ويعمل على توقيه لذلك يقول أهل الجنة حين يدخلونها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

وقد استعاذ النبي ﷺ من الحزن إذ يقول داعيا ” اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن “ فالحزن قرين الهم ، فهو إذن يستعبد من الحزن ماضيا ومستقبلا فقد استبان سابقا أن الحزن إذا كان لما يستقبل أورث الهم ، وإذا كان لما مضى أورث الحزن. قال ابن القيم : ” في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال. فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان : فالهم والحزن قرينان وهما الألم الوارد على القلب ، فإن كان على ما مضى فهو الحزن ، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن ، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم. والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضر الإرادة ، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة : ١٠]. فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره ، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى بها العبد بغير اختياره كالمرض والألم ونحوهما ، وأما أن يكون عبادة مأمورا بتحصيلها وطلبها فلا ، ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات وما يثاب عليه من البليات. ولكن يحمد في الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته ، فإن المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته ، وإما أن يحزن على تورطه في مخالفته ومعصيته وضياح أيامه وأوقاته. وهذا يدل على صحة الإيثار في قلبه وعلى حياته ، حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه ولو كان قلبه ميتا لم يحس بذلك ولم يتألم فما لجرح بميت إيلا ، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى ، ولكن الحزن لا يجدي عليه فإنه يضعفه كما تقدم “.

ونهي القرآن عن الحزن إنما هو عن الحزن المبالغ فيه المتجاوز للحدود الفطرية ، لأنه يشد الإنسان بقوة إلى الماضي ويكبله بأغلاله ، ويحبسه عند تفاصيله ، أما الحزن الطبيعي فهو مسموح به بالقدر الذي ينفس فيه الإنسان عن مشاعره ، وهذا هو الصادق الأمين يقول عند فقد ابنه ” إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ” ويقول ” وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ” فتأتي عباراته مؤكدة بشتى أنواع التوكيد وما ذاك إلا لبيان أن ليس في الحزن حرج مادام العبد لا يقول إلا ما يرضي ربه ، وهذا يبين بيانا شافيا أن الإسلام دين الفطرة السليمة . وكما نهى عن الحزن فقد نهى عن الفرح ، والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز .

ولما يعلم ﷺ من شدة وطأة الحزن والخوف على النفس جعلهما من باب البلاء الذي يصبه الله تعالى على عباده تمحيصا وترقية لهم لذلك جعل جزاءه الجنة ” ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب إلا كفر الله من خطاياه ” فهذا يدل على أنه ابتلاء ومصيبة يحط بها عنه من سيئاته . وينبغي على الانسان عدم اجترار الماضي وعدم القلق من المستقبل لأن :
ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وقد وردت مرادفات الخوف في آيات كثيرة حيث عبر عنه القرآن الكريم بالخشية والوجل والروع والرعب والفرع والرهبة ، وكما هو معروف فإن العلماء بإزاء الترادف على قولين : منهم من يميزه ويقول به ، ومنهم من ينكره تماما ويضرب عنه الذكر صفحا خاصة إذا كان في القرآن الكريم ، ويرون أن الحق سبحانه لا يعدل عن كلمة إلى مرادفها إلا إذا كان هناك غرض بين من هذا العدول ، ومن ثم فإنهم يرون أن هذه الكلمات ما وضعت في هذه المواضع إلا لمعنى مغاير لمعنى الخوف المعروف وزيادة ونقصا ، وهنا لا نريد أن نقول في كتاب الله بغير علم ، وإنما نشير فقط إلى الآيات التي وردت فيها هذه المترادفات موردين آراء المفسرين فيها .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] قال القرطبي في تفسير هذه الآية : ” يخشون ربهم في قطع الرحم ، وقيل في جميع المعاصي ، ويخافون سوء الحساب : سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة ، ومن نوقش الحساب عذب ” ثم ساق أقوالا لابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ، ثم قال : ” ويحتمل رابعا : ... ويخشون ربهم فيما أمرهم بوصله ، ويخافون سوء الحساب في تركه . ” وفي قوله تعالى : ﴿ ... لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] . قال القرطبي : ” لا تخاف دركا من فرعون ولا تخشى غرقا في البحر “ .

وفي الآية ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿ [الحجر : ٥٢-٥٣] ، قال : ” قال إنا منكم وجلون : أي فزعون خائفون... قَالُوا لَا تَوَجَلْ : أي قالت الملائكة : لا تخف “ فهنا فسر الوجل بالخوف ولم يشي قوله بأنه يفرق بينهما.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] فسر خشية الإملاق بخوف الفقر. وبذلك فسر قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠]. وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] قال : ” أي خافون ، والرهب والرهب والرهب : الخوف ، ويتضمن الأمر به معنى التهديد “ وبه فسر قوله تعالى ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠].

وكذلك وردت مترادفات للحزن من مثل الأسى والبث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] فسر القراطي : ” أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق “. وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] قال القراطي : ” قال ابن عباس : بثي : همي ، .. وقيل : أشد الحزن “ وقال السيوطي قال ابن فارس : كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا ﴿ فَلَمَّا أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٥] فمعناه أغضبونا. كما أن السيوطي عقد بابا في الإتقان سماه قاعدة في الألفاظ يظن بها الترادف وليست منه ، قال : ” من ذلك الخوف والخشية لا يكاد اللغوي يفرق بينهما ، ولا شك أن الخشية أعلى منه وهي أشد الخوف ، فإنها مأخوذة من قولهم شجرة خشية أي : يابسة ، وهو فوات بالكلية ، والخوف من ناقة خوفاء أي بها داء وهو نقص وليس بفوات ولذلك خصت الخشية بالله في قوله تعالى : ﴿ ... وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١].

وفرق بين اللفظين بأن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشي قويا ، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا ، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة نحو شيخ للسيد الكبير ، وخيش لما غلظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبا في حق الله تعالى نحو ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤] وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ [فاطر : ٢٨]. وأما ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

[النحل : ٥٠] ففيه نكتة لطيفة فإنه في وصف الملائكة ولما ذكر قوتهم وشدة خلقهم عبر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة فجمع بين الأمرين ولما كان ضعف البشر معلوما لم يحتاج إلى التنبيه عليه.

صفات أصحاب من لا خوف عليهم ولا هم يحزنون :

(١) يتضح مما سبق أن الخوف والحزن ملازمان أساسيان لكل إنسان ، ولكي يتجاوز هذا الحزن عليه أن يحظى بنعمة عظيمة تصغر معها سائر النعم على أهميتها في نفسها ، وهي نعمة الهداية ، والإيمان ، والتسليم لله ، والتقوى ، والانفاق . وبكلمة ؛ نعمة أن يكون من أولياء الله . وقد تكررت هذه البصيرة في القرآن لأهميتها ودورها في سكينته النفس واطمأنانها عند المؤمن .

(٢) منذ أن أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة الى الأرض ، ذكر بني آدم بأن الخوف والحزن يصيبان من لم يتبع هدى الله . أما الذين يتبعون هدى ربهم باتباع الرسل والآيات ، فإنهم في أمان من الخوف ” على المستقبل “ ، لأن الله قد وعدهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولأنه سبحانه هو الحفيظ لهم الذي ضمن لهم الأمن . كما لا حزن لهم ” على ما فاتهم “ ، لأن الله يعوضهم ، وأن إليه المصير . قال الله سبحانه : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

(٣) يذهب الإيمان بالله والاستقامة على الطريق رغم الصعاب ، الحزن عن قلب المؤمن ، حيث الملائكة تنزل عليهم وتبشرهم بالجنة . قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] بلى ؛ الجنة وما أدراك ما الجنة ! فحين يبشر بها المؤمنون يعرفون أن كل ثمن كانوا قد قدموه أو سوف يقدمونه لدخولها فهو قليل . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الاحقاف : ١٣] ، ويستفاد من ذلك أن الاستقامة تستدعي تنزل الملائكة بالبشرى في دار الدنيا ، لكي تثبت المؤمنين على الطريق .

(٤) وإذا أسلم الانسان نفسه لله ، وسلم للحق النازل من لدنه تسليماً ، وأطاع الرسل بلا جدال ، فإنه يحظى بنعمة السكينة ، فلا خوف عليه ولا حزن . قال الله سبحانه : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

(٥) أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة آية صدق إيمان المسلم ، فإذا أداها فإنه يحظى بالأمن والسكينة. قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

(٦) ومحور الأمن عند المؤمن ثقته بالمستقبل ، وإيمانه بأن الله تعالى لا يضيع أجره. فإذا أنفق لم يخف الفقر ولم يحزن على ما فاته من أمواله ، لأنه لم يفته شيء منها ، إنما هي مودعة عند رب لا تضيع عنده الودائع. قال الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

(٧) السكينة هي ميراث الرسالات الإلهية ، فما من نبي إلا وقد بعث بالبشرى لمن آمن وأصلح ، أنه لا خوف عليه ولا حزن. قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الانعام: ٤٨]. وقال سبحانه : ﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٥].

(٨) والأمر ليس مختصاً بالمؤمنين من أمة القرآن الكريم ، بل يدور الأمر مدار الإيمان والعمل الصالح أئى كان ، وفي آية أمة مؤمنة تتبع الرسل. قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]. وقال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩].

(٩) وتتجلى سكينة الإيمان في القيامة ، حيث يستبشر المؤمنون السابقون بالذين يلحقون بهم من إخوانهم ، لأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال الله سبحانه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

(١٠) وولاية الله حصن لمن قبلها بصدق ، فإن أولياء الله لا خوف عليهم مما يأتي ولا حزن لما فات. قال الله سبحانه : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢].

الخاتمة :

تصاحب المشاعر الانسانية سلوك الانسان أينما حل وذهب ، حتى في منامه ، وتضفي هذه المشاعر قيمة تربوية عميقة على التجربة التي يعيشها الفرد ، فتعمق هذه التجربة إن كانت المشاعر المصاحبة لها إيجابية ، ولا يرغب في تكرارها إذا كانت المشاعر سلبية مثل الهم والغم والحزن ، وهى كلها باعثة للندم وعدم التكرار. كما أن الهم والغم والضيق والقلق والخوف والحزن والملل والوحدة وفقد الامان والشعور بالاكثاب كلها خبرات تفقد الناس الشعور بالسعادة في هذه الحياة ، لأنها تؤدي للحباط والياس المانع من النجاح في الحياة. فالؤمن الذي يعود نفسه على الخوف من الله تعالى ، فلا يخاف أي شيء آخر ، وإذا أراد أن يقضي الفرد على أي خوف مهما كان كبيراً فما عليه إلا أن يستحضر عظمة الله ويتذكر قوته وعظمته ويقارن ذلك بقوة الشخص الذي يخاف منه وحدوده ، ليجد أن كل الدنيا لا تساوي شيئاً أمام قوة الله تعالى ، وهذه العقيدة تجعل الإنسان أكثر قدرة على المواجهة وبالتالي تجعله أكثر قدرة على درء المخاوف مستقبلاً ، وبالتالي يستمتع بحياته الدنيا ، وهو موعود بالأمان في آخرته.

لا تعتبر الانفعالات عيباً كما يظن بعضهم ، بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك ، إلى القول بأن عدم الانفعال في مواقف تقتضي من الفرد أن يغضب أو أن يحزن ، يعتبر مظهراً من مظاهر الاضطراب النفسي ، وانخفاض مستوى الصحة النفسية. إن للانفعالات أهمية كبرى في حفظ حياة الكائن الحي ، لأنها رد فعل طبيعي يقوم به الفرد ، لمواجهة المواقف الطارئة التي تعترضه ، وعن طريقها يتمكن من مقاومة المواقف الخطرة ، أو الهروب منها. بيد أن كثرة الانفعالات ، والإسراف فيها يضر بصحة الإنسان النفسية والجسدية ، واضطراب الناحية الانفعالية عند الإنسان يعد من الأسباب الهامة في نشوء كثير من أعراض الأمراض الجسدية ، والتخلص من القلق هو طريق العلاج ، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات الكريمة التي تساعد الإنسان على السيطرة على انفعالاته المختلفة والمتعددة.

كذلك يخبر القرآن أن المؤمن لا يحزن أبداً لأن الحزن سلوك سلبي ، ولذلك سبقت كلمة الحزن في كل القرآن بكلمة ” لا “ ، وهذا يدل على أن المؤمن لا يحزن. وهذا ما تؤكدته كلمات الرسول ﷺ التي جاءت في أصعب الظروف التي مر بها وهو في الغار ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠]. كذلك فإن الآية التالية تحت على

السلوك الايجابي وعدم الوهن وعدم الحزن ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩].

يتضح مما سبق أن سلوك دروب مخافة الله في الدنيا كفيل بإزالة الخوف والحزن في الآخرة ، مما يجعل الانسان في سعادة دائمة ونعيم أزلي يجعل الانسان مستمتعا بالجنة ، لا يخاف زوال النعيم ، وهو فرح بما فعل في ماضيه لأن الله سبحانه وتعالى أسكنه الجنة نتيجة لافعاله الطيبة ، وبذلك تدوم سعادة المرء في الدارين.

المصادر والمراجع :

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي [٧٧٤] : تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس للطباعة ، ط ٨ - ١٤٠٦ - ١٩٨٦ م.
- (٣) آرون بيك [٢٠٠٠] : العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية ، ترجمة عادل مصطفى ، القاهرة ، دار الآفاق العربية.
- (٤) العلامة أبو السعود [د.ت] تفسير أبي السعود أو ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار الفكر [دون ط أو ت].
- (٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري [ت ٣١٠] جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، لبنان ١ / ١٤٠ هـ.
- (٦) ريتشارد سوين [١٩٨٨] : علم الأمراض النفسية والعقلية ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ، [ط ١] ، الكويت ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.
- (٧) عبد الدائم الكحيل [٢٠٠٧] : روائع الاعجاز النفسي في القرآن الكريم والسنة [http://www.kaheel7.com].
- (٨) عبد الستار ابراهيم [١٩٩٤] : العلاج النفسي المعرفي الحديث ، الكويت ، دار الفجر للنشر والتوزيع.
- (٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي [ت ٦٧١] ، الجامع لأحكام القرآن ، الناشر مؤسسة مناهل الفرقان ، توزيع مكتبة الغزالي ١٩٨٨ م.
- (١٠) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي [٧١٠] ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات دار الكتب العلمية - لبنان.
- (١١) محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي [٦٥٤ - ٧٥٤] ، تفسير البحر المحيط ، دار الفكر ط ٢ ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.